العذراء مريم في لبنان

للاب ي . ي . اليسوعي

ذكر المشرق في صفحته ٥٥٨ من السنة الجارية التأليف الجليل الذي اتحفهُ الوطن الاب يوسف غودار اليسوعي ووعد ان يفرد لهُ مقالة واسعة نظراً لاهميته وها اننا اليوم نفي بوعدنا فنقول:

لكل قطر فضيلة يمتاز بها عما سواه ويفاخر بها من باراه . وهي تارةً مجد الحروب وصولة السيوف . واخرى براعة الاقلام وبلاغة الكلام . وطوراً هي الغنى والمال وطوراً العلم والصناعة الى ما شاكل ذلك . وان لبناننا العزيز لم يُستثنَ من هذا الحكم فاذا عدّدت المفاخر يوماً فما اولاه ان يتباهى بما حازه منها

يفتخر لبنان اولاً بجمال الطبيعة الذي زينه به الله وقد طالما شادت بذكره الاجيال فقد مدحه الكتاب المقدسة في العهد العتيق اكثر من ستين مرة . وكانت ثلوجه وعطوره وارزه وعاود الشامخ وخصب تربته ومياهه الصافية الباردة ومناخه المعتدل تجمله في اعين بني اسرائيل اجمل صقع في الدنيا . والحق يقال ان لبنان كان اوانئذٍ يغشى بغابات الارز والسنديان حتى قال مار ايرونيموس في احدى رسائله : ما من مكان اعلى واكثر احراجاً واكثفها من لبنان . وقد قال كاتب روماني آخر اميانوس مرشلينوس عن السواحل اللبنانيّة : انها بلاد في غاية الحسن واللاعة . وقد اثرت محاسن لبنان في قلوب المسافرين والسياح في كل الاجيال . قال احدهم وهو الفيكنت دي مرشلوس في كتابه عن الشرق (١٨٢٠) : اني افضل لبنان وظلاله وصخوره واديارة على كل ما رأيت وشاهدت في اوربة

يفتخر لبنان ايضاً بتاريخ اجياله والمنصرمة يكاد يرتقي الى مهد الانسانيّة . فقد طار في الآفاق ذكر المدن الفينيقيّة كصور وصيدون وبيروت وجبيل وطرابلس وارواد التي حكرت بين ايدي اهلها تجارة العالم اجمع واشتملت بستعمراتها على سواحل البحر المتوسط قاطبةً . وشهدت الاصقاع الشاميّة مواقع الفاتحين العظام الذين تنازعوا ملك العالم المتمدن منذ الاجيال الاولى فكانت ولم تزل مطمح ابصار الامم لانها طريق

البلاد الاسيرية الوسطى وباب التجارة الهندية . هذا فضلاً عن الرجال العظام الذين نشأوا في لبنان وكانوا لهُ مجدًا مؤبدًا

ولكن هذه المحاسن دون مجد آخر يفوقها ويفضلها ألا وهو تمسك لبنان بدين المسيح وامانته في خدمته . فقد كان ملجأ للمسيحيين في أيام الشدَّة ولولاه لما بقيت النصرانية زاهرة في الاصقاع الشاميَّة . فأكرم بشعبه شعباً حافظ مدى الاجيال مع ما داهمهُ من الاهوال على حبه للمسيح . فلعمر الحق ان هذه الامانة لمجدًا لا يضاهيه مجد وفخرًا لا يفوقهُ فخر . وان اصل هذا المجد وسبب هذا الفخر العذراء مريم

ان مريم ولبنان لاسمان بل لموضوعان جمعهما الكتاب المقدس في قلبنا . فمن منا لم يحفظ الاقوال البديعة الطافحة منهما الليتورجيات المقدسة حيث يرد لبنان كموضوع تشابيه تجلى بها محاسن العذراء مريم : « هلمي معي من لبنان ايتها العروس » (١ . « اني ارتفعت كالارز في لبنان الخ » (٢

قال القديس ايرونيمس (٣ : « لبنان معناه البياض فبكل صواب شبهت بهِ العذراء مريم لان فضائلها جعلت نقاوتها اتصع من الثلج » . وقال آخر (٤ : « ان مريم لجديرة بان تشبه بلبنان لانها جبل الله ذاك الجبل الذي نُحت منهُ حجر الزاوية اعني بهِ المسيح »

ولم يتشرف مكان غير لبنان بان يكون موضوعاً للتشابيه التي يبين بها الروح محاسن البتول امنا وان في هذه الميزة لسبباً كافياً ليفاخر لبنان ما سواه من الاصقاع . ومع ذلك يحق لهُ ان يدَّعي مجدًا اعظم . فمن اول نشوء العبادة لمريم في الساحل الفينيقي لم يزل اسم مريم العذراء ام الله في لبنان على افواه ابنائهِ في كل احوالهم صلاة يستطرون بها النعم . وتعزية يسكبون بها لوعة الاحزان . ونشيد عزّ يقدّسون بهِ أيام الانتصار . فكأن اللبناني اراد ان يشكر للعذراء الشرف الذي خولتهُ اياه باتخاذها لبنان جبلاً لها فاحب ان يحفظ في قلبه عبادتها حيَّة زاهرة كإرث مجيد ويظهر قالت العبادة

١) نشيد الاناشيد (٤ : ٨)
٢) ابن سيراخ (٢٤ : ١٧)
٣) طالع تفسيره لنشيد الاناشيد (ص ٤ ع ٣)
٤) وهو متى كاتنا كوزين في شرحه لنشيد الاناشيد (ص ٢ ع ٩)

بتشييد المعابد المتعددة على اسمها واقامة الاحتفالات القلبية اكراماً لها . وبالاختصار يمكن القول ان العذراء كانت له كل شيء.

كانت له طبيباً وقاضياً ومحامياً. قضى زمناً طويلاً معتزلاً عن العالم في اوديته العميقة وعلى قمم البعيدة المنال بين الدير والكنيسة قشفاً في معيشته فقيراً مضطهداً. فمال بكل قواه الى العذراء مريم يتوقع منها كل خير. فطلب منها الخلاص الابدي والخير الزمني. العافية والانتصار وقوت اليوم. وكما ان الامطار نحتت صخوره نحتاً وصورتها صوراً مختلفة هكذا العبادة لمريم صورت نفس اللبناني وجعلت له « خلقاً مريمياً » اعني ميلاً الى العذراء شديداً اصبح غريزياً تبدو مظاهره في كل احواله عفواً بلا قسر ولا تصنع

وقد انتبه لهذا الامر السياح والمرسلون فدوّنوه مراراً في كتاباتهم حتى رينان نفسه مدة اقامته في الشرق بعد سنة ١٨٦٠. فقد اعتبره كاعظم حاجز في وجه البروتستانية. قال: « ان عبادة العذراء متأصلة في قلوب كل اللبنانيين وهي التي تحبط مساعي البروتستانت فيما بينهم فانهم يتساهلون بكل الامور ويسلمون بها ولكنهم اذا دعوتهم الى ترك التعبد للعذراء شعروا برباط لا تقوى عليه عزائمهم. يقيدهم ويمنعهم » (١

هذا ما حدا بالاب مرتين المرسل اليسوعي الشهير من اربعين سنة الى جمع شذرات عديدة فيما يتعلق بحب اللبنانيين لمريم بينما كان يعنى بتأليف تاريخ لبنان. ولكن مجموعه بقي منسياً في مكتبة كلية القديس يوسف حتى اكتشف عليه في سنة ١٨٩٨ الاب يوسف غودار فهم ان يجعله قاعدة لتأليف جديد كامل شامل

وما كان يخلو العمل من الصعوبات لان الاب كان في عزمه ان يتخذ المبادئ العلمية الحديثة اساساً لابحاثه ولم يكن مع ذلك بين يديه من التآليف سوى بعض فقرات منثورة في كتب متعددة. ولكنه لم يتململ من النجاح. فأخذ في التجوال في لبنان وسورية بصحبة الاب جيرار دي مرتنبري فزار كل نواحيها مرتين الاولى في سنة ١٨٩٨ والثانية سنة ١٩٠٢ ليجمع ما يتسنى له من المعلومات ويفحص بذاته الاماكن التي عزم على وصفها وهو مع ذلك يتصفح في اثناء اسفاره كل ما نالته يداه من الكتب

١) طالع البعثة الفينيقية (ص ٢١٦)

والمخطوطات ويزيد عليها كل ما استفاده من المرسلين وثقات اللبنانيين. فكانت نتيجة هذه الاتعاب والابحاث مؤلفاً جليلاً بالافرنسيَّة في ٥٥٠ صفحة مع القطع الكبير تزينه اكثر من ٧٠٠ صورة كلها او اغلبها نشرت لاوَّل مرَّة طُبع في معامل (La Bonne Presse) في باريس بحرف جلي مشرق والحق يقال ان تلك المطبعة الشهيرة لم تنشر احسن منهُ تأليفاً ولا ابدع صنعة وهو مع ذلك لا يساوي سوى سبعة فرنكات ونصفاً

امَّا اذا اردت معرفة الطريقة التي اتبعها الاب غودار في تأليفه فيكفينا القول ان كتابه عبارة عن حديث زائر يصف الاماكن التي حج اليها. وقد راقت في عينه هذه الخطة اوَّلاً لانها كثيرًا ما كانت تطابق عواطف قلبه التقوية. وثانيًا لانها كانت تسمح لهُ ان ينظم ما يلتقطه من الدرر المرميَّة في سلك الحوادث التاريخيَّة والاوصاف الجغرافيَّة بنوع ان يتمكن القارئ من الاطلاع على عبادة اللبنانيين للعذراء اطلاعًا حسيًا حيًا كأنهُ يشاهدها عيانًا

وفي الواقع ان مظاهر الحياة تملأ صفحات الكتاب فان انشاء المؤلف وبراعته في الوصف. وتفننه في طرق القص. وابداعه الاستعارات والتشابيه الانيقة وفقت حضرته الى احياء ما دثر من الرسوم السابقة وتشخيص ما يحدث من الامور الجارية يومياً في قرانا. فما احلى مصاحبته في سفره. تارة يهبط في اودية لبنان العميقة واخرى يتسلق قممه الشاهقة. يحج الى المعابد الكبيرة في المدن ولا ينسى المزار الحقير في القرى الحقيرة. تراه يعاين كل شيء. يفحص ويسأل ويصغي. يستنشد الشعراء اللبنانيين لا يستحقر حقيرًا ولا يستجيل اميًا. يدون التفاصيل الدقيقة عن الكنائس ويستنسخ ما ورد منها في المخطوطات والسجلات. ويصف الحركات واللهجات وبكلمة كل ما من شأنه تمثيل نفس اللبناني تمثيلاً باطنًا

وما يعجبنا منهُ فضلاً عن عواطفه التقوية ولهجته السارة ومعارفه الواسعة في التاريخ والجغرافية وظرفه ولطف مزاحه. حبه بل قل شغفه وكلفه بالبلاد التي يصفها. فكم من مرة تشعر عند وصفه لمعبد حقير او شهرده زيارة تقوية انهُ استعبر متأثرًا لما ظهر لهُ من بساطة اللبنانيين وتقواهم وتعلقهم بسيدتهم. ولذلك لا تشعر بالتعب ابدًا من مرافقته في سياحته. واليك مختصر كتابه قسماً قسماً لتقف على الكنوز التي يحويها وتشتاق الى التمتع بها

ففي القسم الاوّل الذي عنوانه « على حدود صور وصيدا » يذكر المؤلف مزارات الناصرة وخاصةً كنيسة سيدة الكرمل « المنتصرة » ثم يمرّ على عكا ومنها يؤمّ صور حيث أُنشئت اول كنيسة عظمى مكرسة للعذراء يثبتها التاريخ بنوع أكيد (سنة ٣١٤) ومن صور يتوجه الى صيدا ويصف في طريقه سيدة عبرا وسيدة درب السين ويذكر خبر ترميمها العجيب بمساعي احد المشايخ المتاولة. ثم يستوقفنا ملياً عند سيدة المنطرة وهو مزار الروم الكاثوليك. ويختم كتابه بذكر بدائع اخوية على اسم العذراء كانت زاهرة في صيدا في القرن السابع عشر

امّا القسم الثاني فمداره على جبات لبنان الماتيم فيها الدروز وفيه يطلعنا الاب اولا على اصل الدروز ويصف اخلاقهم وطباعهم. وليس الكلام في مثل هذه المواضيع فضولياً لانهُ لا يمكن وصف الدور المهم الذي اتخذتهُ لها العذراء مريم في لبنان الّا بتعريف تاريخ لبنان وطباع اهله. ثم تجد في هذا القسم كلاماً في عدّة معابد مثل سيدة الخلدة وسيدة النجاة عند النبي يونس وسيدة الوادي بالقرب من جزين الخ. ولكن المؤلف يتوسع في وصف ثلاثة اماكن خصوصاً وهي سيدة المخلص وكان لها نصيب وافر في النهضة الكاثوليكيّة في الجيل الثامن عشر ثم سيدة بسري وخاصةً سيدة التلة في دير القمر. وهو مزار شهير للموارنة يديرهُ يشوعيون الرهبان الحلبيون على احسن ما يرام ويحج اليهِ حتى اليوم اللبنانيون من كل ناحية

القسم الثالث موضوعه المتن وكسروان. يقف بنا المؤلف من بيروت ولكن قبل ان يترك المدينة يشخص امامنا مشهداً بديعاً مشهد شابين قديسين ورد ذكرهما في اخبار الجيل السادس للمسيح. ثم ننتقل بصحبته الخيال وتزور سيدة النجاة في بكفيا ومنها نهبط الى بيت شباب لزيارة سيدة الغابه وفي اثنائها نسمع حديث الامير حيدر ابي اللمع وكان من اخص عبيد العذراء مريم. ثم بعد ذلك نتوغل في مضايق نهر الكلب ونسلم على سيدة طاميش وسيدة اللويزة ونرتقي الى المشارف الكسروانية التي سماها المؤلف « واحة البطاركة » وبكل صواب لان اليها التجأ البطاركة في أيام المحن. فبطريرك الارمن الى سيدة بزمار وبطريرك السريان الى سيدة الشرفة وبطاركة الموارنة الى سيدة بكركي فيصف المؤلف كل هذه الكنائس التي انتصبت بينها سيدة لبنان على قاعدتها العالية في حريصا ثم سيدة البزاز في حارة صخر وسيدة الابراج في غزير.

وقد كان لها أيام عزّ في عهد المشايخ الحبيشيّة . وسيدة الحقلة في غابة فوق دلبتا . وبعدها يصعد بنا الكاتب الجرد فتزور واياه سيدة حراجل في ميروبا وسيدة الكفور وسيدة الشقيف في الفتوح

يستهل المؤلف القسم الرابع واسمهُ « ارض تموز » بوصف عبادة الاله تموز ثم يبين كيف دخلت العذراء مريم الوثنيّة واقامت في كل مكان بدلًا من مناسكها الرجسة معابد تكرم فيها ام الطهارة والقداسة . ويخص بالذكر ناحيتين ناحية مدرسة مار يوحنا مارون وناحية نهر ابراهيم حيث تعدّدت المعابد الصغيرة ولها الاحاديث الملذة . منها سيدة البئر المشرفة على وادي نهر ابراهيم وسيدة غشربا تحت يحشوش في موقع طبيعي بديع سنيت العذراء فيهِ « ام العجائب »

وبعد ذلك نتزل الى جبيل حيث نجد عدّة كنائس للعذراء منها « سيدة البرابة » يحج اليها الزوّار بكثرة حتى اليوم . ونسير على سيف البحر حتى بترون وفيها سيدة البحر ومن هناك نعكف على الجبل ونرتقي فيهِ ونزور دير ميفوق . وفي زيارتنا نسمع حديث دير سيدة أيليج مقرّ البطاركة الموارنة قديمًا . ثم ينتهي هذا القسم الرابع بخبر مقابلة حبيسين معتزلين بالقرب من السيدة

في القسم الخامس ينتقل بنا المؤلف الى لبنان الاعلى وقد سماه « بلاد الرهبان » ولا عجب من هذا الاسم لان الناحية كثيرة الاديرة ولاسيما الحابس في وادي القاديشا . امّا ابتداء هذه الرحلة فمن طرابلس حيث نجد سيدة الحارة وسيدة النعمة وقد نقلت صورتها العجائبيّة الى كنيسة الفرنسيسكان التي في القاهرة في حي الموسكي . ثم من طرابلس نصعد الى سطح الجبل الذي عليهِ زغرتا . هناك كنيسة كبيرة للعذراء بنت بسببها مواقع شتى ابلى فيها اهل زغرتا وادّخروا لهم سمعة طيبة بشجاعتهم وقوتهم . ومنها نرتقي الى مشارف الجبة ونتمتع برؤى محاسنها الفتّانة . لان الاب يصفها وقلبه طافح اعجابًا . وبعد اخذ نصيب من الراحة في دير قزحيا البديع الموقع نصل الى الاماكن التي اشتهرت في تواريخ الموارنة . فهناك سيدة حوقا وسيدة قنوبين مقر البطاركة . اكرم مزار للعذراء في تلك الناحية . ثم سيدة الحصن في اعلى بلدة اهدن . وقد سماها الاهارن « روح اهدن » لانهم ينسبون اليها انتصاراتهم على اليعاقبة والمتاولة . واخيرًا تحت ظلال الارز تنحني امام التي نسميها في الطلبة ارزة لبنان فان لها هناك مصلّى صغيرًا

بعد الجبة جبل النصيرية . وهو موضوع القسم السادس من الكتاب وفي اول فصل منه بحث مطوّل في كنيسة سيدة طرطوس التي طارت شهرتها في الافاق الاوربية على عهد الصليبيين وهي الآن جامع . وفي آخر القسم وصف سيدة الحصن بنيت قديماً بترب حصن في ايام الصليبيين ورممها الآباء اليسوعيون . وفي خلال الزيارتين يقص علينا الكاتب طرفاً واقاصيص مفكهة عن العذراء التقطها من افواه اهالي تلك الجبال

ها قد وصلنا في القسم السابع الى حمص فبعد مسير طويل جنوباً نجمع في اثنائه كل ما تسنى لنا جمعه من اخبار وتقاليد قديمة يقف بنا المؤلف في رأس بعلبك في دير قديم جداً للروم الملكيين تكرم فيه سيدة الميلاد . ثم يسير بنا الى بعلبك ويشرح لنا اخربتها العجيبة وما كان فيها لعبادة العذراء من الآثار المسيحية ومن بعلبك نستأنف المسير معترضين السهل الى دير الاحمر . هناك الحازون بنوا معبداً حسناً للسيدة في بشوات ومن دير الاحمر نتوجه جنوباً الى القرزل وزحلة حيث تكرم سيدة النجاة للروم الكاثوليك وأخيراً الى تعنايل حيث اقام الآباء اليسوعيون كنيسة بديعة لسيدة التعزية . اما الصورة المكرمة في تعنايل فقد كانت اولاً في طورينو ثم اخذها المرسلون الى الجزائر ومنها شرفت البقاع واستقرت فيه

بقي على الكاتب ان يصف لنا الرقعة الدمشقية وما تحويه من الآثار المريمية وقد عني بهذا الوصف في آخر هذا القسم واسهب في الكلام عن مار يوحنا الدمشقي الذي اشتهر بحبه للعذراء والحاماة عن حقوقها وفضائلها . وختم القسم بل وزياراته كلها بزيارة سيدة صيدنايا التي تغني شهرتها عن ذكر محاسنها

اما القسم الثامن والاخير فهو عبارة عن نظر عام في عبادة الشرقيين للعذراء وكل متعلقاتها . فان المؤلف يبحث فيه عن ميزات هذه العبادة وخواصها وذلك في مظاهرها من كنائس ومعابد وطقوس وزيارات واحاديث وتماثيل وكل ما يعرّفها حق المعرفة . وفي الختام يعرب المؤلف عن وطيد رجائه في شفاعة البتول وحمايتها للبلاد بالغت في اكرامها

هذا هو المؤلف الجليل الذي اتحفنا حضرة الاب غودار قرّادنا الشرقيين فبعد مطالعته يشعر القارئ انهُ طاف بلاداً تغلغلتها العذراء مريم واحتضنتها من كل وجه . وما احسن

ما قالهُ في هـذا المعنى (ص ٧٤ و ٤٩٤) : « ان العذراء مريم كانت كمحور دارت حوله الوقائع والحوادث التي شهدها اهل لبنان وقد كانت اكثر حروبه حروباً دينيَّة . . . ويتأكد الباحث ان جملة معابد لا لها اهميَّة بالظاهر هي للنواحي التي فيها بمثابة القالب للجسم البشري . يزورها اللبناني ويتعلق بهـا بكل عروق قلبه كما تتأصل الشجرة في شقوق الصخور رويداً رويداً ولكن بقوة لا تُقهر » . وتزيد على ذلك ان من طـالع الكتاب يحصِّل فوائد جمة عن تاريخ لبنان

ونختم قائلين انهُ ينبعث من هذا التأليف شعاع نور منعش . نور الرجاء والثقـة في مستقبل بلادنا . فان التي حفظت للبنـان ايمانه وجامعته فيما مضى ستحفظهما لهُ في المستقبل مع ما طرأ وسوف يطرأ عليهما من عوامل الخراب . ويحسن بنا ان نذكر هنا ما قالهُ يوماً غبطة بطريرك الموارنة في اثناء زيارة جمعت كل افراد كليتنا : « ان الزوابع الهائلة تتهدَّدنا غير ان العذراء التي حمت لبنان سوف تحميه ثانيةً . وكما ان للجنود في ظلمات المعامع شعاراً يعرفون بهِ اصحابهم ويحذرون بهِ مكايد العدو كذلك ان لنا نحن ايضاً شعاراً ورجاء وهو العذراء مريم »

وقد فطن لهذا الامر كل الذين سعوا ولا يزالون يسعون في خير لبنان من مرسلين ومحسنين . فانهم لا يقدمون على عمل الَّا بظل حماية العذراء . لما تألفت شركة فرنساوية في سنة ١٨٤٦ لاعانة مسيحيي لبنان باشرت اعمالها في ٢ شباط بتكريسهـا للعذراء مريم في كنيستها الباريسيَّة المعروفة بسيدة النصر الامة المارونيَّة . وقد ثبَّت التكريس البابا بيوس التاسع بعد ذلك بسنتين . وكأني بلبنان قد اراد ان يخلد ذكر حبه للعذراء وحماية العذراء لهُ في اثر فخيم باقامته لسلطانته المحبوبة تمثالاً يبلغ مع قاعدته ٣١ متراً فاذا ما رآه المسافر عن بعد عرف ان العذراء وضعت رجلها الطاهرة على قمم لبنـان وتملكتها وان من وطئ ارضه دخل تحت سلطانها وحمايتها

هذا وقد احببنا ان نشفع مقالتنا في هذا التأليف الجليل ببعض مقتطفاته (١ تتمة للفائدة وتفكيهاً للقرَّاء

---

١) وهي تعريب جميل افندي خوري تلميذ كليتنا سابقاً

وصف كسروان وذكر شيء من اخباره (١٧٠-١٧٤)

هو اشبه بحصن حصين من الحجر الاصم. من ناحيته الشرقيّة انتصب صنين كسور طبيعي يدافع عنهُ . ومن جهتيه الشماليّة والجنوبيّة حفر لهُ نهر ابراهيم ونهر الكلب خندقين هائلين لا مجاز لهما. ومن وجهته البحريّة حماه خط ابراج شاهقة شرفاء اقامتها لهُ الجبال. ودعاها اسطرابون « السأم الجبلي ». وفي داخل المربع الذي حدّدناه من الاودية العميقة والجبال المتشابكة ما حمل احد المرسلين على القول: « ان منظرها لمخيف حتى انهُ يجعل في القلب بغض الخطيئة وحب السماء ». وكفى ببعض المدافع اذا نصبت في اعلى هذه الشرفات حتى تقاوم عسكرًا جرّارًا

امّا تاريخ البلاد فظاهرها يحدّث بهِ كما ان ملامح الرجل تخبر بما في صدره. فهيئة كسروان هيئة جبّار شديد الجبلة. شبوح العظام مُنذَب الوجه تدل على انهُ صاحب حرب وصراع. والحق يقال انهُ لكذلك. فمن أيام مَرْدة الجبل السابع حتى العصاة الذين احتازوه بعد الصليبيين لم يزل كسروان همًا ومفزعة لاعدائه... وقد اضطر سلاطين مصر ان يرسلوا بعثتين ويزحفوا اليهِ بخمسين الف مقاتل من المماليك ليتمكنوا من احتلاله وتذليل سكّانه وكان مع ذلك خوف المصريين من النبّانة اللبنانيين فائق الحدّ حتى اضطر قوّادهم على المناداة بخنق كل جنديّ يرتد الى الوراء هربًا. وقد توالت المواقع الهائلة مدّة احد عشر يومًا لان اللبنانيين كانوا يدافعون عن ارضهم شبرًا شبرًا. فكان المصريون يهاجمون كل تلّة ورابية وكل شقّ في الجبل للاستيلاء على البلاد ولم يسقط ذلك الجبّار العنيد الّا في سنة ١٣٠٦. وقُلّد التركمان حراسته (١ فقهروا ان الراحة لا تستتب لهم في كسروان الّا اذا سالموا السكّان فآمنوهم واراحوهم وبينما كان المتاولة لا ينفكون عن غزو الموارنة في شمالي لبنان ولا يدعون لهم لذّة عيش كان الكسروانيون في امن وسلام. فاضحت بلادهم ملجأ المضطهدين. ومأوى الهاربين. وما عتمت ان اكتست صخورهم الجرداء خضرة ونضارة. وامتدت على رؤوس جبالهم القرى والمزارع الآهلة

---

١) طالع تأليف دي كاترمير في السلاطين المماليك. الجزء الثاني: حوادث سنة ٧٠٦ هـ

نعم لم تشرق بعد على المسيحي شمس الحريّة التامّة . فان الماروني بقي بعد ذلك عبدًا لا حقوق له مرعيّة وفلاحًا ضعيفًا يئن تحت الحمل في مسكنه الحقير ولا يسمع له صوت . ولكن ذلك كان فجر الحريّة واول طلوعها . ولم يكن غير قليل حتى بزغت عليه انوارها ودقت ساعة الخلاص . فتملص الكسروانيون من ايدي ظالميهم واعتقوا باقي اخوتهم اللبنانيين فدعي لذلك كسروان « سيف لبنان »

في اواخر الجيل السادس عشر استجار ببعض الموارنة في بلونة اميران من الدروز بعد قتل ابيهما الامير قرقماز معن في قلعة نيحا المشهورة بشقيف تيرون . وكان هذا الماروني ابراهيم بن سركيس الخازن . والاميران فخر الدين الشهير واخاه يونس . وكان في تلك الأيام أيام بلابل واضطراب ان حملة او غزوة تخضع ولاية واخرى تسترجعها في الغد

كان فخر الدين خطيبًا بليغًا ورجلًا مقدامًا جريئًا . خدمهُ السعد فاسترد بمساعدة متقذيه الموارنة ولايات ابيه ووسع نطاقها ثم تملك على كسروان واحتل بيروت واخضع لامره بلاد الجليل وزحف بجنوده حتى جبال حوران البركانيّة . ولكن نجمه أفل سريعًا فتوارى وتغلب عليه اعداؤهُ والجأوهُ الى الهرب الى ايطاليا . وهناك لاذ بآل مديسيس وزار بولس الخامس . ثم في سنة ١٦١٧ ظهر في عكّا . بغتةً وكسر جيش اعدائه واحتل سوريّة من دمشق الى بحيرة لوط ومن طرابلس الى القدس الشريف فقدم له الطاعة كل المشايخ والامراء وقبائل العرب ودعوه « سلطان البرّ »

وكان تعلقه عظيمًا باريس الثالث عشر وبمملكته حتى انهُ كان يحسب نفسه من جنس الفرنج . فرمم كنيسة الناصرة وغيرها من المعابد . وعقد معاهدات تجاريّة وشيّد خانًا لتجار الفرنسيس في صيدا . واستحضر من فلورنسا جماعة من مشاهير ارباب الفنون . . .

ولم يكن لينسى من احسن اليه في بلونة ولا الدينَ الذي الهم ذويه المحبة للقريب والاغاثة للملهوف وكان سبب نجاته . فانتشل الخوازنة من ايدي الخصول وجعلهم لهُ عمّالًا فاخذ بنو الخازن يتقدمون في سبل الشرف والمجد مع ذاك الرجل العظيم الذي لاذ بحمايتهم . وقد اختار الرب منهم قديسين اتقياء . ولبنان بطاركة عظامًا . وفرنسا تناصل والياباوات امراء رومانيين . وكما ان نعمتهم صدرت عن فعل خير بقيت كلها لفعل الخير

قال بعض المعاصرين: « وكانت عيشة الموارنة حتى تلك الأيام شقيّة. لا يأكلون خبزهم الّا مبتلًا بدموعهم. لا نصيب لهم سوى الضرب والقيود والسجن وفقد الحرية » (١. فاخذ بنو الخازن بناصر اخوتهم بكل همة ونشاط...

وكانوا قد جاؤوا من شماليّ لبنان فيمن جاء منهُ هربًا من جور الطاولة فتحصنوا في كسروان وساعدهم الدروز على محاربة اعدائهم فطردوهم من كسروان فاصبح « قلب الطائفة المارونيّة وملجأ العبيد الآبقين من المدن فيهِ يجدون الامن والراحة » (٢

قال بعض سيّاح القرن الثامن عشر (٣ : « ان البلاد الكسروانيّة ملجأ كل المسيحيين. فترى فيها كثيرًا من الاديرة وعددًا عديدًا من الرهبان والراهبات. وكل الكنائس لها قبب واجراس. والديانة فيها حرّة كما في بلادنا الفرنساويّة... وذلك لان سكانها وكلهم من الموارنة رجال حرب وبطش. حكامهم اربعة من مشايخ آل الخازن. لهم سطوة وصولة وفي وسعهم ان يسلحوا ثلاثة آلاف مقاتل فاذا انضموا الى امير الدروز تمكنوا من مقاومة باشا صيداء. »

وزد على ذلك مجدًا اعظم من مجد الحروب. فقلما تجد في ذلك العصر عمل خير او مشروعًا مفيدًا الّا وللخوارنة فيهِ اليد الطولى. فكم من بائس انقذوه وعاثر اقالوه ومظلوم حصلوا لهُ حقوقه. حتى ان احدهم وهو الشيخ الشهير ابو نوفل كان يقول: « اني حامل في قلبي النصارى كلهم فلا يجرحهم احد الّا ويجرحني »

وقد كان للعذراء مريم قسم وافر من تبرعات هذه الاسرة الكريمة فساعدتهم على اعلاء شان المسيحيين في كسروان. فان كثيرًا من الصور والاديرة والكنائس التي على اسم السيدة مؤرخة من ذلك العهد

بقي علينا في الختام ان نتمنى لتأليف الاب غودار معرّبًا يقرّب من الشرقيين منالهُ ويعمم فوائده

---

١) طالع كتاب بسون (Besson) في سورية والارض المقدسة (ص ٨٠)

٢) من رسالة دي بوالفاش (de Poislevache) في ١٥ تشرين الاول سنة ١٦٩٨

٣) وهو غرانجه (Granger) — عن مخطوطات وزارة الخارجية في باريس ٣٢٢ ٢٧٥